محمود درويش والسجن الكبير

أفرزت المقاومة الفلسطينية شعراء لعبوا أدواراً مختلفة فى رفض العدوان والاحتلال الإسرائيلي.. وتحملوا ـ كما تحمل الشعب الفلسطيني ـ عواقب المقاومة من السجن والنفي والقتل والتشريد.

ومحمود درويش يجئ صوتاً منفرداً فى هذه السيمفونية الوطنية التى عزف فيها الشعراء من أمثال فدوى طوقان ـ وإبراهيم طوقان وسميح القاسم ومعين بسيسو وآخرون.

ولد محمود درويش فى قرية البروة بعكا عام 1941 ـ وتوفي فى مستشفى هيوستن بأمريكا فى 8 أغسطس عام 2008 ودفن فى قريته.. وما بين التاريخين يتجلى نضال درويش من أجل الحرية والكرامة.. حتى آخر رمق فى عمره ولسان حاله يقول:

أنا آخر الشهداء

أسجل أنك قديسة فى الزمان

وضائعة فى المكان

أريد بقية ضلعى

أريد بقية ضلعى

أريد بقية ضلعى

ولم يتمكن درويش من استرجاع بقية أضلعه لأنه نثرها هنا وهناك عبر العالم.

كانت أسرته تعيش على الزراعة.. ومن ثم كان أبوه فلاحاً متوسط الحال وأمه سيدة لا تعرف القراءة ولا الكتابة.

ومحمود هو الابن الثانى من ثمانية أبناء.

وحينما هاجمت إسرائيل القرية الصغيرة.. وهدمتها نزحت الأسرة عام 1948 إلى لبنان.

ماذا يفعل هذا الطفل الذى عمره ست سنوات.. لقد رأى أسرته تهرب فى جنح الليل.. عبر غابات موحشة مع مئات البشر تلاحقهم طلقات الرصاص الطائر من كل جانب.

وبعد عام من إقامتهم فى إحدى القرى اللبنانية..عادت الأسرة إلى فلسطين متسللة.. حتى استقرت فى قرية (دير الأسد).

ويواصل محمود دراسته الابتدائية.. وتنتقل الأسرة مرة أخرى إلى قرية (الجديدة) حيث يحصل محمود على الثانوية العامة.. وينتقل إلى حيفا (1960) لتتفتح عيونه على واقع مؤلم يعيش على العنصرية والاعتداء اليومى على أبسط حقوق البشر.

بدأ درويش يمارس نشاطه السياسي من خلال انضمامه للحزب الشيوعي.. وبدأ يعيش على الكتابة فى الصحف والمجلات التابعة للحزب.

ولم تتركه قوات الاحتلال.. فقد أدركت تأثير كلماته ومواقفه فاعتقلته عدة مرات سنوات (1961 ـ 1965 ـ 1967 ـ 1969) مما اضطره إلى

السفر إلى روسيا عام 1970 للدراسة الجامعية ومكث هناك عاماً وبعض عام.

ورأى أن العودة إلى فلسطين غير مأمونة لهذا آثر الهجرة عبر العالم.. فأخذ يتنقل بين العواصم العربية والعالمية حتى استقر به المقام فى بيروت.. ويرأس تحرير (شئون فلسطينية) عام 1987 لكنه يستقيل منها فى أعقاب اتفاقية أوسلو.. ويرأس تحرير مجلة (الكرمل) 1981.. وبدأ يتنقل بين رام الله وعمان..

أصدر درويش عدة أعمال شعرية منذ عام 1964 من أهمها: أوراق الزيتون ـ يوميات جرح فلسطيني ـ أحمد الزعتر ـ كتابة على ضوء بندقية ـ جندى يحلم بالزنايق البيضاء ـ لماذا تركت الحصان وحيدا ـ جدارية.. وله أيضا أعمال نثرية متعددة.. وحصل على جوائز عربية وعالمية وترجمت أعماله إلى لغات مختلفة.

ومحمود درويش اقتحم فى بداية إبداعه ظاهرتين مهمتين: شعر المقاومة الفلسطينية.. وشعر الحداثة.

فالمقاومة الفلسطينية تتطلب هذا الصوت العالى المؤثر الذى يحرك الجماهير ويحثهم على المقاومة والصمود.. وهو هنا يحاول أن يكتب قصيدة (وطنية) يحمل فنية القصيدة بجانب هذا الحس القومى.. وهى بالطبع معادلة صعبة.. نجح درويش فى أحيان كثيرة فى الجمع بين طرفيها فى فنية جيدة..

يقول مثلا فى (بطاقة هوية):

سجل

أنا عربى

ورقم بطاقتى خمسون ألف

وأطفالى ثمانية

وتاسعهم سيأتى بعد صيف

سجل

أنا عربى

وأعمل مع رفاق الكدح فى محجر

وأطفالى ثمانية

أسل لهم رغيف الخبز

والأثواب والدفتر

من الصخر

ولا أتوسل الصدقات فى بابك

ولا أصغر

أمام بلاط أعتابك

فهل تغضب؟

وقد نلاحظ منذ الوهلة الأولى أننا مع شاعر ـ تلقائي ـ تأتيه الكلمات والتداعيات من قلب تجربة حياتية عميقة.. فى أسلوب الحكى والذكريات.

وها هو يختار لهذه القصيدة إيقاعاً مسترسلاً مؤثراً فى الوجدان وقد يأخذ البعض على هذه القصيدة النثرية والتقريرية.. لكننا.. مع موافقتنا على

ذلك نشعر بأن الشاعر يحاول أن يكسبها فنية ويشحنها طاقة وجدانية مؤثرة.. حتى إنه ينهي هذه القصيدة بقوله:

سجل برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحد

ولكنى

ولكنى ذا ما جعت

أكل لحم مغتصبي

حذار.. حذار من جوعي

ومن غضبي..

وحين يحكى عن (أحمد زعتر) فهو مطالب هنا بسرد حياته ومقاومته وموقفه الوطنى واستشهاده.

لهذا نجد محمود درويش يتمتع بالحس الدرامي فى أعماله الشعرية وذلك لأنه يريد أن يجذب إليه الجماهير ويخاطب الوجدان ولا يخاطب العقول فحسب:

إنه يبدأ قصيدته بقوله:

ليدين من حجر ومن زعتر

هذا النشيد

لأحمد المنسَىّ بين فراشتين

مضت الغيوم وشردتني

ورمت معاطفها الجبال وخبأتني

ثم يقول فى ثنايا القصيدة:

وله انحناءات الخريف

وله وصايا البرتقال

له القصائد فى النزيف

له تجاعيد الجبال

له الزفاف

كانت فلسطين معشوقته ولهذا نجده أحيانا يتمرد عليها وأحيانا أخرى يلتمس لها العذر فهى مقهورة لا يستطيع أن تعشق وهو بين الحين والآخر يحملها معه و(يهربان) فى كل مكان فى العالم..

أيها الوطن المتكرر فى المذابح والأغانى

لماذا أهربك فى مطار إلى مطار

كالأفيون..

والحبر الأبيض

وجهاز الإرسال

أريد أن أرسم شكلك

أيها المبعثر فى الملفات والمفاجآت

أريد أن أرسم شكلك

تلك إذن قضيته وقضية كل عربى.. كيف تكون ملامح هذا الـوطن.. وهو المحاصر والمبعثر والمقهور دائما.

إنه لا ينسي وطنه وأسرته حتى وهو بعيد عنه فى المنفي وفى هذا يقول:

الليل ـ يا أماه ـ ذئب جائع سفاح

يطارد الغريب أينما مضى

ويفتح الآفاق للأشباح

ماذا جنينا نحن يا أماه

حتى نموت مرتين

فمرة نموت فى الحياة

ومرة نموت عند الموت

وأنت يا أماه

والدى وإخوتى والأهل والرفاق

لعلكم أحياء

لعلكم أموات

لعلكم مثلى بلا عنوان

ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا علم

ودونها عنوان

ما قيمة الإنسان؟

تلك هى الحقيقة المرة أن يكون الإنسان بلا هوية.. بلا وطن.. بلا عنوان.. ترى إلى أى شئ ينتمى.. إنه ينتمى إلى عالم النفي والتشرد..

ويذوق درويش السجن عدة مرات.. ويكتب من داخل السجن تلك التجربة المرة التى تجمع بين المتناقضات.. فهو يقول مثلا فى (برقية):

من آخر السجن طارت كف أشعارى

تشد أيديكم ريحا على نار

أنا هنا ووراء السور أشجارى

تطوع الجبل المغرور أشجارى

أقول للمحكم الأصفاد حول يدى

هذى أساور أشعارى وإصرارى

أقول للناس للأحباب: نحن هنا

أسرى محبتكم فى الموكب السارى

فى اليوم أكبر عاماً فى هوى وطنى

فعانقونى عناق الريح والنار

هو إذن فى سجن صغير.. لكن أهله ورفاقه فى سجن كبير تحكمه الريح والنار.. ومن ثم فهما مشتركان فى المحبة.. محبة الوطن.

ومرة أخرى يقول من داخل سجنه:

تغير عنوان بيتى

وموعد أكلى

ومقدار تبغى تغير

ولون ثيابى.. ووجهى.. وشكلي

وحتى القمر

عزيز علىّ هنا

صار أحلى وأكبر

ورائحة الأرض: عطر

وطعم الطبيعة: سكر

كأنى على سطح بيتى القديم

ونجم جديد

بعينى تسمر

يتوهم السجين حياة مختلفة فى سجنه.. بالرغم من تغير كل شئ عاداته.. عنوانه.. لون ثيابه.. وجهه.. ملامحه.. القمر.. كل شئ لكنه من أجل وطنه يتحمل ذلك كله.. لأنه عاشق لهذا الوطن.. ومن الواجب أن يتحمل مغبة هذا العشق.

لكنه أحيانا يستسلم لليأس والحزن.. ليقول فى (صلاة أخيرة):

يخيل لى يا صليب بلادى

ستحرق يوماً

وتصبح ذكرى ووشما

وحين سينزل عنك رمادى

ستضحك عين القدر

وتغمز: ماتا معاً..

لو انى.. لو انى

أقبل هذا الحجر

وأهتف: لم تبق إلا بلادى

ويسترسل فى اليأس والأحزان.. لكنه وهج داخلى يفلسف من خلال الموت والحياة.. وربما كانت لجدراية محمود درويش.. هذه الرؤية الحكيمة العالية التى تتسلل إلى عمق الحياة.. وعمق الوجود.. يقول:

أيها الموت انتظرنى عند باب

البحر فى مقهى الرومانسيين

لم أرجع وقد طاشت سهامك مرة

إلا لأودع داخلى فى خارجى

وأوزع القمح الذى املأت به روحى

على الشحرور حط على يدى وكاهلى

إلى أن يقول:

ما قيمة الروح إن كان جسمى

مريضا ولا يستطيع القيام

بواجبه الأولى

فيا قلب يا قلب أرجع خطاى

إلىّ..

لأمشى إلى دورة الماء وحدى

ويقول أيضا:

باطل باطل الأباطيل باطل

كل شئ على البسيطة زائل

لقد هده المرض بعيداً عن بلاده.. فراح يشكو ويصرخ ويفت فيه الحنين.. ويكتشف أن الحياة كلها باطل فى باطل.. وأن نضاله ونضال رفاقه.. كان بلا جدوى.. ليرحل محمود درويش فى هدوء ويدفن فى قريته ولسان حاله يقول:

إن مت انتبهت

لدى ما يكفى من الماضى

وينقصنى غد !